تركيزٌ على بحث
جياكومو بيرسي باولي (Giacomo Persi Paoli)، مايكل ماكنيرني (Michael McNerney) وسارة غراند-كليمنت (Sarah Grand-Clement)



عَيْنٌ على البحر الأبيض المتوسّط

من تأليف دوج إيرفينج (Doug Irving)، كاتب موظّف

تواجه البلدان المُطلّة على البحر الأبيض المتوسّط — من الجزائر إلى مصر في شمال أفريقيا؛ ومن إسرائيل إلى سوريا في بلاد الشام؛ وتركيا، واليونان، وإيطاليا في أوروبا — اضطرابات غير مسبوقة. أصبح حالياً ملازمٌ سابقٌ في قوّات البحريّة الإيطاليّة (Italian Navy) باحثاً في مؤسسة RAND Europe، وهو يعمل لمساعدة الآخرين على تقدير نطاق الأزمة في البحر الأبيض المتوسّط.

أصبح القارب رمزاً للأزمة في البحر الأبيض المتوسّط: قارب صيدٍ قديم، ربّما، أو عوّامة مطّاطيّة هابطة، تعجّ باللّاجئين الذين يسعون وراء حياةٍ أفضل على شاطئ جديد.

إنّه رمزٌ قويّ، علامةٌ لآلاف الرجال، والنساء، والأطفال الذين لقوا حتفهم في السنوات الأخيرة وهم يواجهون ذلك الخطر. ولكنّ ذلك ليس سوى جزء واحد من أزمةٍ تمتدّ حالياً عَبْر الصحراء الكبرى، من خلال مدن شمال أفريقيا التي لا تسود فيها قوانين، ووصولاً إلى عمق عصابات الجريمة المُنظَّمة في أوروبا.

تعجز دوريّات الحدود عن إيقاف هذا الوضع. تعجز بعثات الإغاثة عن حلّه. تصل المشاكل التي تواجه المنطقة، بحسب ما تشير إليه مبادرة جارية لمؤسسة RAND، إلى أعمق بكثير مما كانت الحكومات الغربية مستعدّة للإقرار به. ويعني ذلك أنّ تسويتها ستتطلّب الوصول إلى عمقٍ أكبر بعد.

"نَتَج عن الاستياء من مشاهدة التبسيط المُفرط الذي كان يجري عرض المشكلة به"، بحسب ما قاله جياكومو بيرسي باولي (Giacomo Persi Paoli)، وهو باحث لدى مؤسسة RAND Europe قاد المشروع. "إنّ المشاكل مترابطة بعمقٍ كبيرٍ لدرجة أنّنا لا نستطيع حلّها باعتماد مقاربة مكافحة الحرائق (أي التصرّف بسرعةٍ وفعاليةٍ لحلّ مشكلةٍ طارئة)، مع إخماد كلّ حريقٍ على حدة".

إنّه يتكلّم عن خبرة.

رجلٌ موكلٌ بمهمّة

كان وقت الغروب عندما ظهر القارب للمرّة الأولى كصورةٍ على شاشة الرادار قُبالة ساحل ليبيا. على متن بارجة بحريةٍ إيطاليةٍ حيث كان بيرسي باولي (Persi Paoli) ملازماً، رنّت صفّارة طوارئ في الوقت الذي أمر فيه القبطان البحّارة جميعهم بالتجمّع على سطح السفينة على الفور.

كان باستطاعة بيرسي باولي مشاهدة مئات الأيادي تلوّح وتطلب النجدة عندما ظهر قارب الصيد الخشبي القديم مُتمايلاً على الأمواج. أنقذ هو وزملاؤه على متن السفينة حياة 400 شخص تلك الليلة، ما شكّل العملية الأولى ضمن ست عمليات من مهام الإغاثة التي شارك فيها. يتذكّر أنّه كان يأمل فقط أن يبقى القارب الصغير طافياً على وجه الماء لفترةٍ كافيةٍ في حين كانت الأمواج تلطم هيكله البالي.

خدم جياكومو بيرسي باولي (Giacomo Persi Paoli) كملازمٍ على متن سفينة "آي تي إس **سكيروكو**" (ITS *Scirocco*). خلال فترة خدمة بيرسي باولي، أدّت البارجة البحرية الإيطاليّة عمليات إغاثة في البحر الأبيض المتوسط.



تم التقاط صورة قوات البحرية من قِبَل مصوّر قوّات البحرية الفوتوغرافي من الدرجة الأولى بارت بوير (Bart Bauer)

"يمكنك القول حقاً إنّه لولاك لما رأى هؤلاء الناس النور اليوم التالي"، هذا ما يقوله حالياً. "كنّا نبحث عن هؤلاء الأشخاص بشكلٍ ميؤوسٍ منه، لأنّنا علمنا أنّهم كانوا هناك — نساءً وأطفالاً — وأنّهم كانوا بحاجةٍ إلى المساعدة".

لاقى أكثر من 5,000 شخص حتفهم وهم يحاولون عبور البحر الأبيض المتوسّط العام الماضي، باعتباره العام الأكثر دمويّة على الإطلاق. أتوا من أحياء سوريا التي تعرّضت للقصف، ومن قرى إريتريا وغامبيا اليائسة. فَقَدَ الصومال عدداً كبيراً من الأشخاص في البحر حتّى بدأ تحذيرٌ يجتاح تويتر (Twitter) هناك: DhimashoHaGadan# أو "لا تشترِ الموت" (Don't Buy Death).

هذا ما يراه الناس على نشرات الأخبار المسائية: الجثث التي قذفتها المياه إلى الشاطئ، ومخيّمات المهاجرين المكتظّة، والقوارب. ولكن أراد بيرسي باولي، الذي ترك قوّات البحرية الإيطالية (Italian Navy) في أواخر عام 2013 وانضمّ إلى مؤسسة RAND كقائد بحث متخصّص في مجال الأمن القومي، أن يوسّع العدسة. أطلق على المشروع تسمية منتدى التبصّر المتوسّطي (Mediterranean Foresight Forum).

تتبّع الأموال

تعقّب الباحثون جذور الأزمة وصولاً إلى الوعد المكسور للربيع العربي (Arab Spring) ومدن سوريا وليبيا المُدَمَّرَة، وإنّما أيضاً إلى العواصم الأوروبية الغاية في الانقسام لتتصرّف. رسموا خريطةً لطرقات التهريب التي تَعْبُر حالياً أفريقيا والشرق الأوسط، ثمّ تتبّعوا الأموال — مليارات الدولارات كلّ عام — وصولاً إلى الشبكات الإجراميّة التي تزدهر في شمال أفريقيا وجنوب أوروبا.

أظهروا أنّ ما كان من الممكن اعتباره في الماضي تهديدات فرديةً متعدّدة لاستقرار المنطقة، قد اندمج حالياً، مؤدّياً إلى دورة من الاضطرابات تتغذّى من نفسها. في ليبيا وحدها، مثلاً، فإنّ الأسواق السوداء نفسها التي تؤمّن جوازات السفر المزوّرة والقوارب الواهية للمهاجرين، يمكن أيضاً أن تؤمّن الحشيش لتجّار المخدّرات الأوروبيين والصواريخ المحمولة على الكتف للمقاتلين السوريين.

لم يَعُدْ من الممكن معالجة الفقر المدقع في غرب أفريقيا، والاضطرابات في شمال أفريقيا، والتهديد الإرهابي الذي تشكّله الدولة الإسلامية في العراق وسوريا (ISIS) باعتبارها تحدّيات غير مترابطة، بحسب ما خَلُص إليه الباحثون. يبدو حالياً أنّ تلك المشاكل جميعها "تتسكب حرفياً في البحر الأبيض المتوسّط"، كما كتبوا، مُهدّدةً الأمن والاستقرار في القارّتين اللّتين تتقاسمان شواطئه. أصبح مستقبل أوروبا مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً عَبْر البحر بمستقبل الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

"يتم الإبلاغ عن هذه الأجزاء جميعها، ولكنّ أحداً لا ينسُجها معاً بشكلٍ حقيقي"، بحسب ما قاله مايكل ماكنيرني (Michael McNerney)، وهو باحث أوّل في مؤسسة RAND، حيث يشغل منصب مساعد مدير مركز سياسات الدفاع والأمن الدوليّ (International Security and Defense Policy Center). "نحن بحاجة إلى النظر إلى الصورة الكبيرة، لأنّه في حال استمرّت هذه المشاكل بزعزعة استقرار أوروبا والمنطقة، يمكن أن تقضي على المصالح الأمريكية."

أضاف: "تزداد هذه الأزمة سوءاً. ولكنّ أحداً لا يتّخذ أي خطوة، أو يقدّم الموارد أو يقول 'نحن بحاجة إلى أن نعيد النظر بشكلٍ جذري بما نقوم به.'"

الحاجة الملحّة إلى استراتيجيّة طويلة الأمد

تحتاج الولايات المتّحدة، وأوروبا، ومنظّمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) (NATO)، إلى البدء بتبادل المعلومات الاستخباراتيّة بطريقةٍ لم تتجح بها منذ بدأت أزمة المهاجرين. إنّها بحاجة إلى نشر المزيد من السفن في البحر الأبيض المتوسّط والمزيد من رجال الأمن على الحدود. ولكنّها أيضاً بحاجة إلى تأدية دور نشطٍ — من خلال الصفقات التجارية مثلاً — في تحقيق استقرار بلدان مثل تونس قبل أن تنجرّ إلى حالةٍ من النزوح الجماعي.

كان الردّ من أوروبا والولايات المتّحدة حتّى الآن محدوداً جداً، ومتأخراً جداً. "فما كان يجب أن يكون انخراطاً سريعاً وصلباً، كان غالباً رحلة استكشاف حذرة"، بحسب ما كتبه الباحثون في واحدة من سلسلات التقارير الأخيرة. اقترحوا "موجةً ديبلوماسية" بمثابة خطوة أولى عمليّة، لجمع الدول الأوروبيّة، والولايات المتّحدة، ومنظّمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) معاً من أجل صياغة استراتيجيّة واحدة وموحّدة لمعالجة الأزمة.

لاحظوا أنّ أمن منطقة البحر الأبيض المتوسّط واستقرارها قد يبدوان من مختلف أنحاء الأطلسي بمثابة مشكلة أوروبيّة. ولكن ما يحصل هناك — من سوريا إلى مصر إلى شواطئ ليبيا — له تأثيرٌ مباشرٌ على أمن الولايات المتّحدة ومصالحها.

أصبحت تدفّقات المخدّرات والأسلحة والأشخاص عَبْر منطقة البحر الأبيض المتوسّط حلقة تغذية راجعةٍ لانعدام الاستقرار.



يجب أن يرفع ذلك إلى درجة الحاجة الملحّة إلى تخطيط وزارة الدفاع الأمريكية (Department of Defense).

"إنّ نطاق المشكلة غير مسبوق"، بحسب ما قاله بيرسي باولي (Persi Paoli). "لا يمكنك التفكير بحلّها بمجرّد إدارة الأزمة الفوريّة. إنها مشكلة طويلة الأمد. ولكن إن لم تبدأ بالقيام بشيء، لن تحرز أيّ تقدم. سنستمرّ بعد عشر سنوات بالتحدّث عن الحاجة إلى استراتيجية طويلة الأمد."

بحثاً عن الأمان والاستقرار

مرّت سنوات قليلة منذ أن كان هناك، يتفحّص الأفق بحثاً عن القارب القادم. لا تزال ضخامة ما رآه تعود إلى ذاكرته في أوقاتٍ غير متوقّعة: الأشخاص الذين يخرجون من الماء، واللاجئون المحتشدون على سطح السفينة. لقد كان تذكيراً، وهو يعمل على منتدى التبصّر المتوسّطي (Mediterranean Foresight Forum)، بالمصالح المعنيّة: فهي ليست أمان القارتين واستقرارهما فحسب، وإنّما أيضاً حياة مئات آلاف الأشخاص الذين قاموا بالرحلة، وآلاف آخرين لم ينطلقوا بها حتّى الآن.

"لحظة وُلدت ابنتي وأخذتها بين ذراعيّ صعقتني الفكرة فعلاً"، بحسب ما قال. "كانت تلك القوارب التي قمنا بإغاثتها تحمل على متنها حوامل. وكانت تحمل أطفالاً صغار. كانت تحمل أشخاصاً تسنّت لهم فرصة للعيش على الأقلّ بفضلنا."

"ثمّة في بعض أنحاء شمال أفريقيا أو سوريا أهالٍ يُرغمون على خوض ذلك ليتيحوا فحسب تلك الفرصة لأولادهم". ■

بحثٌ لخدمة الصالح العام

تمّ توفير التمويل لمشاريع مؤسسة RAND (RAND Ventures) هذه من المخصصّات المتاحة لمؤسسة RAND من أجل البحث المستقل والتطوير، من عقودها لإدارة مراكزها للبحث والتطوير، والتي تعمل بتمويلٍ فيدراليٍّ من وزارة الدفاع الأمريكية (Department of Defense).

للمزيد من المعلومات حول مشروع منتدى التبصّر المتوسطي (Mediterranean Foresight Forum)، راجع www.randeurope.org/mff.

المنشورات

"عكس التيّار الصاعد: لمحة حول التجريم المتنامي لمنطقة البحر الأبيض المتوسّط" (*Against the Rising Tide: An Overview of the Growing Criminalization of the Mediterranean Basin*)
www.rand.org/t/PE220

"مياه مضطربة: لمحة موجزة حول التحديات الأمنية في منطقة البحر الأبيض المتوسط" (*Troubled Waters: A Snapshot of Security Challenges in the Mediterranean Region*)
www.rand.org/t/PE221

"تحدّيات متعدّدة الجوانب وتداعياتها الأمنية في منطقة البحر الأبيض المتوسط" (*Cross-Cutting Challenges and Their Implications for the Mediterranean Region*)
www.rand.org/t/PE222

"ديناميكيات السياسات الخارجية الإقليمية وتداعياتها على منطقة البحر الأبيض المتوسط" (*Regional Foreign Policy Dynamics and Their Implications for the Mediterranean Region*)
www.rand.org/t/PE223



HEADQUARTERS CAMPUS
1776 MAIN STREET, P.O. BOX 2138
SANTA MONICA, CA 90407-2138

OFFICES
SANTA MONICA, CA
WASHINGTON, DC
PITTSBURGH, PA
NEW ORLEANS, LA
BOSTON, MA
SAN FRANCISCO, CA

CAMBRIDGE, UK
BRUSSELS, BE

CANBERRA, AU

مؤسسة RAND هي منظمةٌ بحثية تعمل على تطوير حلولٍ لتحدّيات السياسات العامة وللمساعدة في جعل المجتمعات في أنحاء العالم أكثر أمناً وأماناً، وأكثر صحةً وازدهاراً.

مؤسسة RAND هي مؤسسةٌ غير ربحية، حيادية، وملتزمةٌ بالصالح العامّ.

www.rand.org/t/CP900

Arabic Translation
"Eye on the Mediterranean"
CP-900/1

2017 مايو/أيار – يونيو/حزيران | RAND.ORG